الفصل الثالث عشر

العوامل المؤثرة فى الأخلاق

الوراثة:

لا ينكر أحد أن الوراثة عامل كبير لحفظ النوع، غير أن من لم يعتد بها اعتبر أنها ليست خاضعة لقانون ثابت. فقد يرث الابن من أبيه شبه عضو من أعضائه الظاهرة كسحنة الوجه أو أجزائه، وقد يرث شبه عضو من أعضائه الباطنية كجهاز الهضم أو التنفس أو العضلات أو المجموع العصبي. والمشايعون للوراثة يستشهدون من التاريخ لوراثة الحرف كالمصارعة والغناء، ولوراثة الصفات الحميدة كالشجاعة والأنفة وقوة الإرادة، وبينوا بالإحصاء أن الوراثة تكون فى الجنون وطول العمر وحب الانتحار والانقباض الغالب على النفس.

وفى عالم الحيوان تجد حدة حاسة الشم وراثية عند الكلاب، حتى إن بعض أنواعها يرث من أصله قوة لقنص معين، وإن هنود شمالى أمريكا يقتفون أثر أعدائهم بمجرد الشم، ويورثون أبناءهم هذه الخاصة. فإذا صحت مشاهداتهم، وتمسكنا بعدم الوراثة فى الأمور الكسبية فإننا نعد هذه المميزات من الغرائز، وما يورث فيها إنما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصة على شريطة أمري: سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميزات، والتمرين المبنى على المحاكاة، أما إذا ضعفت الصحة، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح، قد انعدمت تلك الموهبة.

وصفوة القول أن الحى تؤثر فيه المؤثرات الخارجية، فإذا تكرر تأثيرها فيه وفى نسله تكرارا لم تشبه عوارض، فإن الوراثة تجرى فى النوع كما تجرى العادة فى الفرد، وينتقل منها فى الفرع شيء وراثى ولو قليلا. هذا الرأى يقربنا كثيرا من مذهب أرسطو أن للإنسان روحين: حيوانية وتخضع لقوانين الوراثة، وملكية ويهيئها الاستعداد للاستفادة من التمرين.

وإذا كان تطرق عامل الشر إلى الطفل بحكم الوراثة قهريا، وورث من أبويه أعضاء مريضة، فهل يستطيع المعلم أن يقوم اعوجاجه؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيترك وشأنه أم يجب بذل الوسع فى إصلاح نقصه بالطرق الصناعية التى جنى الفلاسفة ثمارها؟ وقد قلت الجرائم فى البلاد التى شيدت مدارس الأحداث يشغلونهم بتعلم الحرف والصناعات حتى تستقيم أخلاقهم ويستفيد المجتمع والوطن منهم

البيئة:

الوطن الأول للطفل هو بطن أمه، وحينئذ لا تكون له حياة مستقلة بل تابعة للجسم الذى استقر فيه. فإذا عنيت الأم بصحتها نما واستكمل خلقه، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد؛ وإلا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربما أجهضت. ومن ضروب الإهمال فى مراعاة صحته حينئذ حملها العبء الثقيل، أو تعاطيها للغذاء الغليظ، أو حشوها المعدة فتضغط جسمه وتشوه أعضاءه. وكذلك ذوات الأمراض العصبية وذوات المزاج الحاد شواذ الخلقة غالبا.

حكى أن صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها حامل عصبية. فسقطت مغشيا عليها، وانقبضت أحشاؤها فأصاب الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله. والحكيم توماس هوب نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أمه من الأهوال وهو جنين فى بطنها. فإن العبارة الإسبانية " أرمادا " كانت حينئذ تطوف حول سواحل انجلترا وتهددها.

وبعد ولادته يكون وديعة بين يدى مربيته، تتصرف فيه بما أوتيت من رحمة وشفقة، أو قسوة وجبروت. تهمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيهما؛ ويهبط على شفتيه فيسقيه سما زعافا؛ وأكثر الأمهات يجهلن ما يلاءم نموه؛ وما أشد إيذاء الصديق الجاهل! يسيء من حيث يريد الإحسان. تراهن يلاطفنه ربتا على ظهره، يعبثن بشعر رأسه فى موضع واحد، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوام، فيناله الأذى وهن لا يشعرن. وقد يقيدن استقلاله بالتقميط، أو يمنعنه من مشاهد الطبيعة الرائعة، أو يقللن عرض الأشياء السارة عليه فيقضين عليه قضاء لا شفاء له

البيئة الطبيعية:

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر فى الأجسام والأخلاق، فساكنو الأودية ليسوا كسكان الجبال فى صفاء الخلقة، ورصانة العقل، ومتانة الجسم. وسكان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقا، وأبهى جمالا ، وأوفر حصافة، وأكثر حبا للصناعة، وأشد تلهفا على العلوم، وهم فى الحقيقة أهل الحضارة والإمارة والذوق الحسن والاختراع المفيد. ذللوا العالم الأرضى والمائى والهوائي، ولهم كل يوم فتوح علمية نافعة، وبدائع فنية جديدة. وسكان السواحل أذكياء لتمتعهم بمناظر البحار، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالبا وفيها الفسفور الذى يساعد على الذكاء. وهم فوق ذلك أهل جد يجيدون السباحة، ويتجشمون الأسفار البحرية، ويتنسمون رياحها المنعشة.

والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم، وقناعتهم بشظف العيش. وغزارة ملكة الخيال فيهم، وامتداد أعينهم فى ساحة مترامية الأطراف، تحت سماء صافية زرقاء ساطعة الكواكب. كل هذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحي.

والبدو مشهورون بالكرم والاستقلال وبالشجاعة؛ مشهورون بالكرم لأن فقر بلادهم حبب إليهم المهاجرة فساروا فى البوادى المجردة من الأسواق، وربما نفذ من أحدهم الزاد والماء فيجد من الصدور الرحبة ما يقر عينه، ويخفف عنه عناء

السفر؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرنوا عليه من القناعة والخشونة، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلأ يتركون فيه دوابهم، وإذا زحمهم زاحم هجروه واستعاضوا عنه أرضا أخرى بدون عناء؛ مشهورون بالشجاعة لأن كل فرد يمرن يديه على استعمال السلاح دفاعا عن نفسه من مهاجمة وحش أو عدوان معتدٍ.

أما المناطق غير المعتدلة فحيوانها شرس ضار فتاك. تجد فى أدغال إفريقية الفيل النفور والأسد الضارى والتمساح المفترس والحية السامة والذباب المؤذي، وتجد أمثال هذه الحيوانات فى آسيا الصغرى هادئة، حتى إن بعض الدببة تحاكى الغنم فى طاعتها للإنسان واستئناسها. ولا تكاد تجد بها هوام سامة.

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيين الطيش وكثرة الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألحان، وعلل هذا بأن طبيعة الفرح انبساط الروح الحيواني، فالحرارة تهيج فيهم هذا الخلق، كما تهيج المغتسلين فى الحمامات. فإذا تنفسوا فى هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم، فاهتزوا طربا ومالوا إلى الغناء.

والمكان الخصيب تتوافر فيه الخيرات، فينغمس أهله فى النعيم والترف، وينشئون منكسفى الألوان بلداء. انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة، فإن ما يسكن منه القفر ومواطن الجدب كالغزلان والنعام والمها والزرافى وحمر الوحش أجمل مما يسكن الأرياف والمراعى الخصيبة فى صفاء الخلقة، وتناسب الأعضاء؛ فالغزال أخو الماعز والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا.

ونستنتج من ذلك أن البيئة الطبيعية التى يعيشها الفرد لها أثر فعال فى تكوين غرائزه وتنميتها.

البيئة الاجتماعية:

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه فى مهام الحياة المتنوعة، فوجب عليه أن يقاسمه حبه، ويحافظ على ولائه. وقد علمت من الفصل السابق أن الإقليم يؤثر فى طباع سكانه وغرائزهم. وأحيانا تطرأ الحوادث الجسام على هؤلاء السكان، فتتغير

أخلاقهم ويؤثرون فى طبيعة الإقليم. فالعرب كانوا رعاة أغنام، راضين من الحياة بعيشة الكفاف، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم، فلما ظهر الوحى واتبعوا نوره، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف، واندفعوا فى الممالك كالسيل الجارف، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكا.

حكى التاريخ أن امرأ القيس شبَّ فى قومه مترفا، عاكفا على اللهو والخلاعة والفسق والسكر والعربدة والجلوس فى مجالس أهل الريبة والنقيصة؛ ولما وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو على تلك الحال صدع، فانقلب كيانه، ونطق لسانه، بهذا القول المأثور، والشعر المنثور: " لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغدا أمر "

وطوى صحيفة اللهو، وانطلق فى الفلوات طالبا الأخذ بالثأر على عادة كبار النفوس من العرب.

وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسية الكبرى أن كثيرا من العصاة كانوا هادئى الأخلاق فى زمن السلم، فلما ثارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية، وكان لبونابرت منهم أعوان مخلصون.

العقل كالجسم تؤثر فيه بيئة المعانى ويؤثر فيها. تبهره المحاسن فيتلقاها بالقبول، ثم يصوغها من جديد صوغا يلاءم مزاجه، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات. قال أبو تمام:

وأحسن من نور يفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

قيل: إنه نظم صدر هذا البيت ثم أعياه القول فلم يستطع إتمامه ثم سمع سائلا يستجدى بقوله: من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا فاستجاد قوله، واستعاره منه، وكمل هذا البيت. ترانى أجلس فى حديقة تشدو بلابلها وتسجع أطيارها على أغصان الأشجار، والماء يمر بها فيسقيها، والنسيم يحرك ساكنها فيشجيها، وأرى السحب فأناجيها بما ناجى به الشاعر الأندلسي:

كللي يا سحب تيجان الربا بالحلى واجعلي سوارها منعطف الجدول

فإن جلال هذه المشاهد يهز وجداني، ويملك ناظري، ويشحذ تأملي، ويوحي إلى الذاكر فتدخر منه ما تريد، ويصوغ منه الخيال ما يشاء، وما ظنك بخيال حققته براعة الصناع فأنطقوا الحديد، وأطاروا المعاقل، وسيَّروا الأعلام في البحار.

وقد علمت أن الخبرة الذاتية خير مصدر العلم الصحيح. ومن ذا الذي يستطيع أن يستوعب الأمور كلها؟ والعمر مهما طال قصير. وربما لا يهتدي الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبية إلا وهو في آخر مرحلة من العمر، ويموت قبل أن يستفيد مما قضى عمره في الحصول عليه، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرة لينتهي إلى مثل هذه النهاية، مع أن الحقائق ينبغي أن تكون من مجهود الجماعات كل منهم يسدي إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها.

لذلك كان من واجب الإنسان أن يستعين من آراء غيره، ويتبادل مع المفكرين نقد المسائل، ويقرأ سير النوابغ، مستعيرا منه العبر والنصائح، واكتب خزائن العلوم، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهد. فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها، وفهم أغراضها، مستغنيا بها عن هذا العالم المكتظ بالأحقاد والنفاق.

تقضي ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشريه محتكا بهم، فإن جهله بأخلاقهم يجره إلى أن يغتر بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حث ينبغي أن يخاشنهم، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلا.

وتقضي ضرورة الاجتماع على المدني ألا يكون عقله مجرد وعاء ترسب في قراره المعاني، بل منبرا للاستفادة من علمه وتجربه في المصلحتين: الخاصة والعامة، سالكا السبيل التي تهيئه لأن يكون عضوا عاملا.

وقد تحقق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقيه وسائله، وأسسوا الأندية للمؤتمرات العلمية والاجتماعية، فإذا قويت بينهم روابط الود ذللوا الصعاب، وعاشوا في سعادة كاملة.

السعى لاختيار البيئة:

ننظر إلى النبات فيخيل إلينا أنه ثابت فى مكانه، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنها تتشعب فى الأرض، وتظل تغوص وتغوص فى أعماق الأرض طلبا للغذاء.

والحيوان والإنسان مفطوران على حب الانتقال من بيئة إلى أخرى، ويشعران أن الحبس يقضى على السعادة قضاء، ولذلك جُعِل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبي:

إذا صديق نكرت جانبـــه ... لم تعينى فى فراقه الحيـــل

فى سعة الخافقين مضطرب ... وفى بلاد من أختها بدل

إن حب الإنسان لنفسه يدعوه إلى السعى وراء المناخ الصالح والجليس الصادق، وإذا استوطن أرضا يفضل ناحية على ناحية، وأناسا على أناس. ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجرا هجره واستبدل به غيره. والمهاجرة- مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب- تهيم بها النفوس الأبية حبا فى الثراء، وطلبا لاجتلاء محاسن الطبيعة، وشغفا برؤية المتجددات فى عالم الصناعة، والوقوف على أخلاق الأمم، ودرس ما وصلوا إليه من العلوم.

نعم إن النفس الطيبة تجمح بالطبع من البيئة السيئة، وتود لو أن صاحبها يهاجر إلى حيث يطيب له المقام. وإنها لكذلك إذا خاطر يوحى إليها أن التذرع بالصبر أفضل، وأن الجهاد لإصلاح البيئة السيئة واجب تستدعيه محبة الوطن. عند ذلك تهب من رقدتها هيابة وغير وجلة، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق، متذرعة بما أوتيت من عزم ثابت، وفكر ثاقب، وإرادة صحيحة؛ وكلما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداما ونشاطا. والنفس التى هذا شأنها خليقة بأن تتولى قيادة التربية والتعليم.

ويقول المثل: « اطلبوا العلم ولو فى الصين ».

نعم ، إن العلم النافع وطن للمفكرين أولى النفس السامية، يهتم به أصدقاء الكتاب أو محبو العلم ، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات، وأفاض من نوره شعاعا على عقول العاملين، فاخترعوا المدافئ للوقاية من وطأة البرد، والمراوح والتكييفات لتخفيف الحر؛ ورسموا- مستعينين به - مناظر بديعة رائعة، جذابة خلابة، يتمتع برؤيتها المقيم فى وطنه؛ وسجلوا الأغانى على شرائح الـ سى دى والأشرطة، حتى أصبح فى وسع الإنسان أن يسمع ويرى كل شيء عبر الإنترنت والقنوات الفضائية. وسماع الموسيقى وهو بين جدران منزله.

وعلى الجملة يتسنى لمن ركز العلم الصحيح فى ذهنه أن يقلب الأمور على وجوهها، ويتخير أجملها، ويتخذ من جحيمها نعيما يريح النفس، ويجلو عنها صدأ الهموم. وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجز عنه العقل. ومن توافر لديه المال فلا حرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقد شؤون الناس. ثم يعود إليه قوى الجسم موفور العقل.

التربية والتعليم:

إن المعلم كالغارس يتعهد الشجرة بضم عود مستقيم إلى ساقها لتنمو على الاستقامة. وإن الطفل كالغصن الغض فيه استعداد للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه. ولأمه عليه الإشراف إلى الستين من عمره، ثم يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار بيئته. ولا يكاد يدرك سن البلوغ حتى يتكامل عقله، ويسمو به وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات: الذاتية والاجتماعية تزدادان، وميوله ومطامعه تتضاعفان، وكلما مارس الصعاب وتقلب على جمر الآلام ازداد صفاء، وحقق رخاء

قارن بين رجلين: أحدهما بدوى قنوع بشظف العيش، عقله غفل من زخارف الحياة، والثانى نشأ فى حضن الحضارة والرفاهية حتى قدر ذوقه على فرز ضروب المحاسن؛ إن الفرق الذى يتبين لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التى ننشدها.

وكم طالت العصور، وانقضت الدهور، ولم ينته البحث فى طرق التعليم، وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم، وكلما خطوا إليه وسبروا أغواره رأوه بحرا واسع الأرجاء، جزيل السخاء. وأنت إذا قدرت ما وصلوا إليه فى غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات، تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها. فإن الفلسفة التى كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها، لاشتمالها على المسائل التى تحتاج من العقل إلى جهد وعناء، أصبحت سهلة المتناول، فاسترشد بها الصانع والتاجر، واهتدى بها السائح والمنقب عن ماضى الإنسان والحيوان وحاضرهما، واستعان بها المعلم فى استجلاء الغرائز والاعتداد بها فى إيقاظ الهمم الفاترة، والميول الطاهرة. وقد دونت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى وقتنا هذا. ولا يكاد القارئ يفرغ من قراءتها حتى تتجلى له المجهودات التى سبروا بها غور العقل، والخطوات التى تدرجوا بها لدرس أحواله النفسية، وما أطول الأشواط التى قطعوها فى سبيل البحث لإدراك مرامى الحقيقة! ولا يزال المعلمون يعتقدون أن فواعل الوراثة عقبة فى سبيل نجاحهم؛ بيد أن لوك وهربرت ضربا صفحا عنها.

قال الأول: " إن عقل الناشئ كالصفحة البيضاء، ينقش عليها المعلم ما يشاء، والعادة والاختبار عاملان كبيران للنجاح، ونحو ٩٠ ٪ من الناشئين قد شكلتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين ". ولا أدرى لماذا لم يعتدا بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان.

واعتقد الثانى أن الأرواح عوالم مجردة من الاستعداد الوراثي، وكلها متشاكلة من بادئ الأمر. والطفل الذى يراد به أن يكون نابغة أو عبقريا يتوقف مصيره على والديه. اعتقد هذا وهو لا ينكر أن هناك أفرادا لا تنجح فيهم التربية مطلقا مهما بلغت براعة المعلم.

إننا نعول فى التأديب على القدرة الصالحة والانطلاق فى ميدان التمرين

والتجارب التى تهيئ الجسم والعقل للجهاد فى سبل الحياة جهادا يتفق هو والميول والمصلحة فى المجتمع الإنساني. نقتفى أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لنتخذ منها مقياسا لما نختاره من العلوم. على أنه لا يسوغ لنا أن تقتصر على مطالب البيئة الحاضرة، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدرا وأرجح وزنا، لنبرهن على أننا أمة ناهضة.

إن الضابط الذى يكفل لنا اختيار مادة الدراسة هو أن نفحص عن أهمية العلوم لأنفسنا، فلجسمنا ولعقلنا ولنظام أعمالنا ولتثقيف وجداننا ولضبط أخلاقنا ولكل ما يساعدنا على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة وثيقة بحياتنا الكاملة، ولا نعرف هذه الحقوق إلا إذا استوعبنا دراسة العلوم الموصلة إلى هذه الغاية، والتى من أجلها شرع التعليم والتأديب. يجب أن ندرس العلوم لنتخذ منها سلاحا نحارب به الرذائل، ونحافظ به على الصحة؛ ويجب أن نستنير بنبراس العلوم لنسترشد به فى تحصيل القوت، ولنعرف كيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم، وكيف نملأ فراغ أوقاتنا بممارسة الفنون الجميلة التى نستمد منها الراحة ونستمتع بمشاهدتها أو ممارستها.